# (( خطط الغيطاني ))

## تأصيل للشكل الروائي وبعث للموروث العربي
## ((دراسة في البنية السردية ))

**د. علي كاطع خلف**
**قسم اللغة العربية / كلية الآداب / جامعة الكوفة**

# مدخل

**عرفت الرواية العربية في مسيرة تطورها في القرن العشرين ، وعلى أيدي كتاب عرب بارزين ومن أقطار عربية عديدة ، محاولات جادة وواعية للعودة الى جذور القص العربي للإفادة منها في بناء رواية عربية أصيلة .**

**ولعل من ابرز هؤلاء الروائيين، جمال الغيطاني الذي يسعى بدأب ومن خلال جهد تأسيسي واضح ومتواصل لبناء رواية عربية أصيلة ، ويمكن عد روايته "خطط الغيطاني " إحدى أهم محاولاته في هذا المضمار ، من هنا يأتي سعي هذه الدراسة إلى الكشف عن الصلة العميقة التي أقامها الغيطاني في " خططه " مع الموروث السردي العربي في سبيل تأصيل الرواية العربية ، من خلال إفادته من الإمكانات الهائلة التي يحفل بها الموروث العربي الإسلامي الذي يتمثل هنا بالكتابات التاريخية وتحديدا " فن الخطط " هذا الفن العربي الأصيل .**

**ومن اجل بلوغ الأهداف المتوخاة من وراء هذا البحث فقد عمل الباحث جهده على دراسة البنية السردية للرواية بعناصرها الرئيسة وهي : المروي والراوي والمروي له ، وقد مهد لذلك بعرض موجز**

لقضية الشكل والمضمون في الرواية ، فضلا عن اهتمام الغيطاني بكتب التاريخ العربية لصلتها الدقيقة بموضوع البحث .

# الشكل والمضمون في الرواية

يشكل تطوير أساليب السرد والبناء في الرواية العربية هما متواصلا لدى الروائي جمال الغيطاني[١]، وهو في هذا لا يختلف عن سواه من المبدعين الذين يسعون جاهدين لترك بصماتهم واضحة على أعمالهم الإبداعية أولا ، ومن ثم من خلال هذه الأعمال - على النتاج الثقافي لعصرهم ووسمه بسماتهم الخاصة بدرجة أو بأخرى ، وذلك من خلال متابعة تطورات الواقع والتعبير عنها بأساليب سردية وبنائية ملائمة لموضوعاتهم المعالجة ، يقول الان روب غرييه في هذا الشأن " عندما يفقد أحد الأشكال الأسلوبية حيويته الأولى وقوته وحرارته عندما يصبح "صفة شائعة " وأكاديمية لا يحترمها التابعون إلا بالروتين والتقاعس دون أن يتسائلوا عن ضرورتها ، عندما يحدث هذا يشكل اتهام الصيغ الميتة ضرورة للرجوع إلى الواقع والبحث عن أشكال جديدة كفيلة بإزاحة هذه الأشكال الميتة لتحل محلها[٢] . وإذا " كانت الرواية لا تفعل شيئا سوى تمثيل الواقع فليس طبيعيا إلا تتطور قواعد واقعيتها بالتوازي مع التطورات الأخرى."[٣]،وإذا كان هذا هو حال الروائي الغربي فان دوافع الروائي العربي يجب ان تكون مضاعفة اذ انه مثل الروائي الغربي سوف يسعى من اجل اكتشاف اساليب سرد وبناء جديدة منبثقة من الموضوعات التي تطرأ في واقع الحياة اليومية في صيرورتها وتطورها الدائم فضلا عن سعيه للبحث عن خصوصية للقص العربي تميزه من سواه من اشكال القص العالمي.

وقد عبر نجيب محفوظ عن ذلك صراحة في منتصف السبعينات بقوله " اليوم طرأ علي تطور جديد يمكن تلخيصه في كلمتين هما : الاشمئزاز من الاسلوب الغربي الذي التزمت به طوال حياتي اشمئزاز وجداني ليس الا اي من دون اقتناع عقلي به فليس لدي اعتراض عقلي على هـــذه الاساليب وما تؤديه من خدمة للعمل الفني ولكنني ضقت بها وجدانيا وبعد ان انتهيت من روايتين هما قلب الليل ... وحضرة المحترم ... كتبت حكايات حارتنا ( نشرت قبلها لاسباب اضطرارية) وهي الرجوع الى الحكاية الشرقية"[٤] وهذا الرجوع الى الحكاية الشرقية هو ما يؤكده نجيب محفوظ في اكـــــثر من مناسبة ، يقول " لا يجب ان يكون الموضوع فقط محليا ، ولكن الشكل ايضا [٥].

وقد يتبادر الى الذهن ان الشكل الروائي هو تراث انساني لا يختص به شعب من دون غيره ، ولا بأس باستعارته ، وهذا غير دقيق ، اذ ان هذا التصور يغفل تلك الوحدة التي تجمع بين الشكل والمضمون ، وان الشكل انما ينبثق من طبيعة المضمون ولا يفرض عليه من الخارج فضلا عن ان
عملية تطوير اساليب السرد والبناء في الرواية ليست قضية هامشية او ثانوية تتصل بالشكل الروائي فحسب ، لكنها قضية فلسفية تعتمد اساسا على نظرة الانسان الى الوجود والانسان والمجتمع لذا نجد ان هناك من يعد التحول في نظرة الانسان الى الواقع الذي يعيش فيه اصلا لكل تحول فني[٦] .

وتجب المسارعة إلى القول اننا نعتمد هنا على اراء نجيب محفوظ في هذا الموضوع لسببين :

١- ان نجيب محفوظ يشكل مثلا اعلى ومدرسة ينهل منها المبدعون العرب ومنهم جمال الغيطاني
٢- ان نجيب محفوظ كان من اكبر مشجعي الغيطاني على ضرورة الانعتاق من الشكل السائد للرواية والبحث عن اشكال جديدة لم يسبق اليها [٧]مما شكل حافزا إضافيا للروائي زيادة على ما يشكله البحث عن أشكال جديدة من هم لديه يقول الغيطاني" يخيل الي بلا شك انه ما من مبدع الا ويطمح الى تقديم اضافة جديدة لم يسبقه اليها احد وبالنسبة لي فقد كان هذا يمثل هما اساسيا من همومي ان اكتب ما لم يكتب مثله ان اقدم موضوعي في شكل غير مالوف غير مطروق غير مماثل لما قراته في الادب الروائي سواء اكان عالميا او عربيا" [٨] .

# الغيطاني وكتب التاريخ العربية

يبدو ان إحساس الغيطاني بالزمن هو الذي قاده إلى الاهتمام بالتاريخ والكتب التاريخية العربية القديمة اذانه يجعل من عنصر الزمن في الادب العربي ولا سيما في الادب الشعبي المصري مقابلا للقدر في الدراما الاغريقية[٩] يقول في هذا الشان " اتجهت الى المصادر التاريخية الكبرى للزمن العربي عامة والزمن المصري خاصة وهنا منابع عديدة منها موسوعات المؤرخين الذين عايشوا فترات مختلفة خاصة بدءا من الفتح العربي لمصر في القرن السابع الميلادي اذ يكاد تاريخ مصر ان يكون مدونا يوما بيوم عبر الحوليات التاريخية كذلك كتب الخطط وهو شكل عربي خالص من التاليف لا مثيل له في الادب العالمي وهو ادب المكان سواء أكان مدينة او شارعا او بيتا أو قرية يسجله في تطوره وعلاقته بالبشر الذين عايشوه " [١٠] ويؤكد الغيطاني إن اهتمامه بكتب التاريخ ولا سيما كتب الخطط ، لايقتصر على المحتوى ، " ولكن باللغة ، بطرق القص والحكي ، أسلوب المؤرخ في رواية ما حدث ولكل مؤرخ أسلوبه وطريقته [١١] ولا يخفى ان التاريخ عند العرب اتسم بسمات خاصة فـ " حول شخصية الرسول ( صلى الله عليه واله وسلم) وجد جنس التاريخ عند العرب ، ووضحت خصائصه ، ولذلك اصطبغ هذا الجنس الأدبي صبغة دينية "[١٢] .

أما عن إفادة الغيطاني من ذلك كله ، فان اول ما يتبادر الى الأذهان هو ذلك الشبه في العنوان بين خطط الغيطان وخطط المقريزي ، ومما لاشك فيه ، ان هذا الشبه ليس اعتباطيا وانما هو مقصود ، ولا سيما إذا تذكرنا اهتمام الغيطاني بكتب التاريخ العربي الإسلامي ولا سيما كتب الخطط منها . ومن اجل الإلمام بعناصر الإفادة ، سنعمد الى دراسة البنية السردية للرواية والمتمثلة بـــ :
١- بنية المروي ٢-الرواي والمروي له.

# ١- بنية المروي

تتألف رواية " خطط الغيطاني " من خمسة عشر فصلا ، تتوزع على ستة أسوار و أربعة شوارع تتناوب مع الأسوار ثم ميدان واحد ، ثم فصل خاص بالضواحي والخلاوي وبعدها يأتي الحي السابع ، ثم فصل بعنوان حروب الخلاوي و أخيرا ساحة الفناء ، ويتضمن كل قسم من هذه الأقسام الخمسة عشر العديد من الأقسام الثانوية ، فعلى سبيل المثال نجد في الشارع الأول مجموعة من العنوانات الثانوية تتصل بأسماء لشخصيات ((الخطط)) ، مثل زقاق التنوخي[١٣] وعطفة الأمبابي [١٤] ودرب رونق ،[١٥] وعطفة الساعي [١٦] ، وزاوية برنق [١٧]، ووقفة البلشي[١٨] .

نلتقي في السور الأول بوصف عام للخطط وما يجري فيها ثم نبدأ ابتداءً من الشارع الأول والمتضمن تلك الأمكنة المرتبطة بأسماء الشخصيات الرئيسة والممثلة لخطط الفساد والشر في الرواية بتعرف عالم الخطط من خلال تلك الشخصيات المهيمنة ، التي تحاول ان تجعل من كل شيء في الخطط يمضي على هواها ، فضلا عن وجود لمحه سريعة عن أخبار أعداء الخطط وبعض صفحات عن إدارة أمن الخطط.

أما في السور الثاني ، فابتداء منه نبدأ بتعرف شخصيات الخطط المعادية لخط الفساد ، وهم من عامة الشعب ، مثل ((خالد)) الذي يفكر في خطة لقهر الأعداء ، وإزاحة خطرهم عن الخط ،

وإيقاع الهزيمة النهائية بهم ، و إجلائهم عن الأراضي الشمالية ،وإعادتها إلى أصحابها .)) [١٩] ، أو المهندس ((ضرغام ))الذي يعشق الصحراء و((لديه مشروع متكامل لزراعة الآف الأفدنة في الواحات النائية ، سيعود ذلك على الناس بخير وفير .)) [٢٠]، ونتيجة للسياسة التي تتبعها سلطة الخطط والقائمة على محاربة كل ما هو خير وتدميره وبخاصة ما كان في أصل الخطط ، ويبدأ أهل الخطط بالهجرة واللجوء الى المناطق النائية (( .. من الثابت أن الهجرة إلى منطقة الخلاوي ، لم تتم أبدا طبقاً لاتفاق بين شخصين ، ولكن كيف جرى الخروج من عمار الخطط في وقت واحد ، كيف ولد الخاطر لدى
هذا أو ذاك ؟ وذلك ما لم يحط به إنسان علماً .)) [٢١].

ويتبع الغيطاني في نسج خيوط روايته الأساس الذي تقوم عليه كتب الخطط عموماً ، والمتمثلة في ذكر الأحداث والوقائع بالتتابع ، على الرغم من انعدام أي رابطه بينها سوى المكان الذي وقعت فيه ، ولكن إذا كان ما يميز كتب الخطط هو التسلسل الزمني المتتابع الذي تتخذه الأحداث التي تروى فيها[٢٢] ، فان خطط الغيطان لاتخرج كثيراً عن هذا النسق ، إلا أن الشي البارز فيها هو أن المكان يحل فيها محل التتابع الزمني ، ففي القسم المعنون بالسور الثاني نجد ( في أوله اغمى على امرأة عجوز ترتدي فستاناً أسود ..وسرت إشاعة بين أصحاب الدكاكين الواقعة قرب الشارع الأول أن البلدية ستزيل هذا الجانب كله ، استشرى سخط وضيق ((...)) وتهدم جزء من خان قديم بني في القرن السادس عشر أول زمن الغزو العثماني ومع انهيار الجدار الشمالي ظهر جذع نخلة عتيقة يذكرها المعمرون في الحي القديم ((...)) ونمت أشجار تم غرسها فوق التلال المطلة على أطراف السور منذ ثلاثة أعوام ))[٢٣] ، أي ان الراوي أحل الأسوار والشوارع والضواحي وغيرها من العناصر المكانية محل الأيام والشهور والسنين .

أما في السور الثالث فنجد ((وفيه قام رجل يرتدي حذاء بنياً ، ترك كوباً فيه بقايا براندي ، وطبق به قطعة جبن رومي صغيرة ، وثلاث ورقات صغيرة ، مكورة ، متجعدة وقبل صغير ضريح ولي ..
((...)) وفيه توقف رجل نحيل طويل ، يرتدي طربوشاً ، .. يمسك عصا قصيرة ، حملق في أرض خلاء ، فوق جانب منها أعمد خشبية واطارت نوافذ قديمة ومقابض أبواب وألواح رخام ، فوق جانب آخر درجات سلم منتزعه ، لم يتبق شيء، لم يبك عيشاً ولى ، أو نوافذ أطل منها يوماً ، أو درجات حبا فوقها ، انما بكى زمناً لن يعود ..
وصفر قطار الضواحي ، فعكم الأسى امرأة لم يطرق النوم جفونها ، وتذكرت الغائب ، النائي ...
وتعاهد فتى وفتاة على الوفاء في حديقة عامة ... )) [٢٤]

إن من الواضح أن هذه الأحداث لارابط فيما بينها ، ليس هذا فحسب ، وانما لا علاقة لها بأحداث وشخصيات الرواية ، وربما نجد في استعمال النكرات مثل : رجل ، طفل ، فتاة ، دليلا يغني عن قراءة (( الخطط)) للتأكد من أنها لا تمت بصلة لسواها من الأحداث والشخصيات . ومن اللافت للانتباه ان ورود مثل هذه الأحداث في الرواية يتكرر بشكل واضح ويتداخل مع الأحداث الرئيسة فيها ، فيصعب في كثير من الأحيان معرفة الأصيل من الطاريء منها الذي لايأتي ذكره في مكان آخر ، والحقيقة ان هذه سمة مميزة ومهيمنة على كتب الخطط عموماً .

وقد أدى توظيفها في الرواية الى الحاجة الى متابعة دقيقة من لدن القارئ لكل ما يأتي ذكره فيها من أحداث وشخصيات ، فعلى سبيل المثال نجد في الشارع الرابع (( شارع الوتيدي )) ما يأتي : (( ثم سرت إشاعات غامضة ألقت الرعب في القلوب ، فحواها ان الطعم الذي حقن به الأطفال كان فاسداً . وأطال شيخ عجوز ضرير التحديق الى طفل مريض ، تعلقت به عيون والديه . والأم
التي وشمت ذقنها وجبهتها ،قال الشيخ: ما اسمه ؟ قال أبوه : سليمان . قال الشيخ ، لفوه في خرق سود ، وإذا طلعت عليه شمس يوم الجمعة المقبل سيعيش . لكن يجب أن تنجو به ..
وفيه مات تاجر في الشارع الخامس .)) [٢٥]

إن حكاية الشيخ الضرير والطفل المريض لها أهمية كبيرة في أحداث الرواية ، على الرغم من أنها ترد في ضمن العديد من الأخبار والحكايات الثانوية الطارئة ، إذا اننا نجد بعد عدة صفحات
(( وفيه طلع شمس يوم الجمعة ، فنطق البستاني العجوز وامرأته بالشهادة ، التنفس ضعيف الجسد بارد ، لكن الروح لم تفارق الجسد ، كان عليهما الأقدام على العمل الصعب ، الشيخ الضرير أمرهما بأن ينجياه من الهلاك ، ماذا يفعلان وسليمان جاءهما بعد أربعين عاماً من العقم المتصل حتى أن حمل أمه عد من الخوارق ، بعد انقطاع كل أمل ، بعد استشارة الشيخ الضرير لف سليمان في شال أسود قديم وبعد دمع طويل جرى من عيون الأم والأب حمله وسافر لمدة يومين في قطار بطيء الى أقصى جنوب الخطط ((...))

وبعد سبعة أيام عاد البستاني العجوز الى امرأته ثم ذهب الى الشيخ الضرير ، أن سليمان في أمان عظيم . )) [٢٦] وبعد أكثر من ثلاث وأربعين صفحة نلحظ عودة الى متابعة حكاية سليمان : (( وعند القرية النائية ، قرب الخلاوي ، اقترب سليمان الصغير
من الراعي العجوز ، كان يظنه أبيه (كذا) ، قال : يا أبتاه ، ما أرمي شيء بحجر الا قتلته ، قال الراعي ، أبشر يابني لن يغلبك أحد ((...)) عاد سليمان الى الراعي العجوز ، يا أبتاه ، رأيت سوقاً داخل الخلاوي فيه مالذ وطاب ، لكنني البائع الوحيد والمشتري الوحيد . قال الراعي العجوز ، أبشر يابني سيكون عمار الخلاوي على يديك ..)) [٢٧]، وهو الأمر الذي يتحقق بعد أكثر من مئة واربع وستين صفحة من الرواية ، (( والحقيقة التي لم يعرفها إلا من وصل حياً الى الخلاوي هي ان
شخصية غامضة من شخصيات الخطط سهلت عبور الجماعات الى الخلاوي الدفينة ،إنه رجل قصير ، مدكوك البدن ، غليظ الرقبة ، ظهر من قبل ظهوراً عابراً عندما حمله أبوه الى أقصى الجنوب هرباً من الحملة التي أبادت مواليد الشارع الخامس .)) [٢٨]
إن المتابعة الدقيقة لمسار هذه الشخصية وتطورها يكشف إنها تمثل رمزاً من رموز البطولة الشعبية بالنظر الى مراحل حياتها المتعددة ابتداء من الولادة التي لم تكن طبيعية ، اذ أن أبويه عجوزان وقد عانا من العقم أربعين عاماً حتى عد حمل امه به من الخوارق ، ثم نجا باعجوبه من الموت المؤكد بعد ان ابيد مواليد الشارع الخامس جميعاً إلا هو ، ثم مرضه الخطير ونجاته بعد يأس والفرار به الى مكان بعيد ، فضلا عن النبوءات الكثيرة التي تشير الى ولادته غير الطبيعية ومستقبله واثره في حياة مجتمعه بوصفه منقذاً ومخلصاً ((إن طفلاً ولد في شارع المفاجأة ، وان هذا الطفل سيكون له شأن خطير في الخطط ، وانه سيغير اموراً كثيرة طال ثباتها ، وانه سيرفع الظلم الواقع في سائر أنحاء الخطط .)) [٢٩]. وقد سبق أن أشار أحد الباحثين [٣٠] الى الشبه بين هذه الشخصية وما ورد في القرآن الكريم بشأن موسى (ع) في ظروف ولادته وخروجه من مصر خوفاً على حياته والتقائه بالمرأتين ومن ثم بأبيهما الشيخ الكبير ومن ثم عودته وقد اشتد عوده وآتاه الله سبحانه وتعالى من الآيات والحكمة ما يتمكن به من مواجهة الباطل المتمثل بفرعون وقومه ، وإحقاق الحق ودحر الظلم أينما وجد .

# ٢-الراوي والمروي له

يبدأ الراوي عمله في (( خطط الغيطاني )) بالبسملة والدعاء ، الأمر الذي يشير الى خصوصية ذلك الراوي ، يقول : (( بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي (( ...)) ... أعوذ بالله من عمل يقرب من سخطه ، وأسأله التوفيق لما يدني من رضاه ومحبته ، أحمده وهو الأول قبل كل أول ، والآخر بعد
كل آخر ، الدائم بلا زوال )) [٣١] . ثم يبدأ بالحديث عن موضوعه من خلال مخاطبة المروي له بقوله :
(( اعلم أن الله خير حافظ ، جعل الخطط متوسطة الدنيا ، فسلمت من الحر الشديد والبرد القارص ، طاب هواؤها وضعف قيظها ، ورق بردها .))[٣٢] ، ويبدو أن الراوي في هذه الرواية ، سواء في تعامله
مع المروي أو مع المروي له ، يستمد خصائصه من كتب الخطط العربية ولا يبتعد كثيراً عن شكل الراوي الذي يسود في هذا النوع من المؤلفات العربية القديمة التي لا يخرج فيها المروي الذي يتعامل
معه الراوي عن كونه محصلاً من خلال واحد من ثلاث طرق ، مع استثناءات قليلة يقول المقريزي في في خططه موضحاً مصادر معلوماته : (( وأما أنحاء التعاليم التي قصدت في هذا الكتاب .) .فأني سلكت فيه ثلاثة أنحاء وهي النقل من الكتب المصنفة في العلوم والرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس والمشاهدة لما عاينته .)) [٣٣]أما الرواية ففي الصفحات الأولى يشير الراوي الى إفادته ممن سبقه من المؤرخين ، يقول : (( عندما خاض العثمانلية في خير الخطط ، أنشد مؤرخ رقيق الفؤاد ..

نوحوا على الخطط لامر قد جرى
عمت مصيبته كل الورى . )) [٣٤]

ويمكن القول أن الأساس في مصادر الراوي في (( خطط الغيطاني )) يكمن في نقله ما هو متداول بين الناس ، وغالباً ما يقتصر دوره على نقل ما يمكن أن تطلع عليه الشخصيات الأخرى من دون النفاذ إلى دواخلها ، ((تترد استفسارات هامة ، أهو الأستاذ ؟ لكن عمره محدود ، كل الدلائل تشير اليه وكثير من

المطبوعات المتداولة سرا في الخطط تتناوله علنا البعض يقول انه لم يأت بجديد وانه جهر فقط بما تجاهله الآخرون أو تغافلوا عنه أو انه المقدور وعجائبه وغرائبه لكن لاشيء يولد من
عدم لهذا سنأخذ بآراء الكثرة والقائلة أن الأستاذ وداره الصحفية وضعوا أساس الحروف. )) [٣٥]، فالراوي هنا يحار في تحديد الرأي الأدق والأصح لذا يلجأ إلى رأي الأكثرية وقد نجد أن لديه رواة
ثقة ينقل عنهم ، فيأخذ بآرائهم على الرغم من وجود آراء أخرى مخالفة ،(( ومن قبل عرف الخلق صحفاً عديدة ، لكن انفردت جريدة الأنباء بوضع خاص ، رغم تقلب الأحوال ، وتعدد الظروف أساسها في الأربعينات رجل قيل انه كردي ، وزعموا أنه أرمني ، ويؤكد الرواة الثقات أنه تركماني .)) [٣٦]وتبلغ دقة الراوي أو محاولته أن يكون دقيقاً انه ينقل حتى الاشاعات عن وجود
غرف سرية في هذا الطابق لايعرفها الا الاستاذ نفسه ، لكن .. لم يثبت صحت ذلك .)) [٣٧]، بل
انه اذا تكلم عن شخصية من شخصيات الرواية ، فانه يقوم بنقل ما لها وما عليها ، وعدم الاكتفاء بوجهة نظر ما ، فعلى سبيل المثال عندما يصف احدى الشخصيات ، يقول : (( يزعم الجعيدي أن سبب إصابته بنوبة قلبية هو حجز احدى الشركات على الخزينة ، ويؤكد أنه يبكي عندما يقبض العاملون مرتباتهم أول الشهر ، لكن مما يذكر له انه أنقذ الدار من أزمات عديدة ، وكثيراً ما اقترض من أقاربه لسداد بعض التزامات الدار .))[٣٨] أما اذا كان مايرويه لاينسب الى شخص بعينه أو انه
أمر شائع ، فانه يلجا الى استعمال صيغة المبني للمجهول ، (... أول ما تم نقله الى المغارة تمثال من الديوريت الأخضر لطائر أبدع الفنان تصويره حتى ليوشك الناظر اليه على الظن أنه سيقلع طائراً ، العجيب ان عينيه مائعتان ، متحركتان ، وقيل ان أصله الحي موجود ، يظهر في سماء الخطط من حين الى آخر ، وقيل ان المغارة ظلت شاغرة لفترة طويلة باستثناء هذا الصقر .)) [٣٩]وكثيراً ما يعلن عن عجزه عن الوصول الى حقائق الامور ، يقول :
((.. من الثابت ان الهجرة الى منطقة الخلاوي ، لم تتم ابداً طبقاً لاتفاق بين شخصين ، لكن كيف جرى الخروج من عمارة الخطط في وقت واحد ، كيف ولد الخاطر لدى هذا أو ذاك ؟ ذلك ما لم يحط به انسان علماً ومن يبدي خلاف ذلك كاذب ، انه أمر عجيب من اسرار الخطط التي حيرت القاصي والداني .)) [٤٠]، بل انه يبدي استغرابه وعجبه من بعض ما يرويه (( شيء مشابه جرى بالنسبة لماء العين ، اذ طمع احدهم في تحليلها ، ومعرفة خواصها ، وتعبئتها في زجاجات ، وبيعها ، قيل ان العين كفت عن التدفق عند الشروع في أخذ العينات ، وافسد ذلك المشروع ، وهذا عجيب أيضاً ..)) [٤١]
ان هذه الدقة التي نجدها لدى الراوي في وصفه الأحداث ونقله كلام الشخصيات لايأتي متابعة لما عرفته الرواية العالمية ( الغربية ) من تقنيات ، وبخاصة في مجال ما يعرف بالمنظور
(Perspective) او وجهة النظر في الرواية ( Point of view ) ، وانما ينبع من افادة الروائي مما يمتاز به التاريخ العربي الاسلامي من أساليب في الكتابة ، ولقد سبقت الاشارة الى ان جنس التاريخ عند العرب قد وجد حول شخصية الرسول ( صلى الله عليه واله وسلم ) ، لذلك اصطبغ صبغة دينية واضحة (( فقد بذل رواة الاحاديث جهودهم في ضمان صحة الاحاديث التي يروونها عن الرسول (ص) ولكي يتم لهم توكيد الرواية تطلبوا ان تكون الحادثة مروية أولاً عن شاهد عيان ثقة ، روى بدوره عن رواة آخرين من الثقاة ، حتى تنتهي سلسلة الرواية الى الراوي المعاصر للحادثة ((... )) ويضيف مؤرخو العرب الى ذلك حرصهم على ايراد الحادثة الواحدة بأسانيد مختلفة ، كل سند منها ينتهي الى شاهد رأى بنفسه الحادثة أو عاصرها وهم يرون في ايراد مختلف الروايات على هذا النحو ضماناً آخر لصحة ما يروون . وقد انتقل هذا الطابع الديني للتاريخ من رواية الأخبار الى رواية الأدب والأشعار.)) [٤٢]، بيد ان تلك الدقة التي يمارسها الراوي في تعامله مع آراء وأقوال الشخصيات نجده يخرقها أحياناً ، فهو كما يتضح من الأمثلة السابقة محدود العلم ، يستقي معلوماته
من الشخصيات التي يروي عنها ومن سوها ، الا اننا نفاجأ احياناً بان له القدرة على الوصول الى دواخل الشخصيات والإطلاع على ما تفكر به وما يخطر لها أي يتحول الى كلي العلم
(Omniscient) [٤٣]كما في حديثه عن احدى شخصيات الرواية ، يقول: ((من الأمور المجهولة في الخطط ، ان شاباً في العشرين هام بها ، كان خجولا ، ينتظرها عند ناصية الطرق ، بعد اسابيع ابتسمت ثم أومأت ثم ردت تحيتة الخائفة ، ثم قالت انها ستنتظره في الساحة، مشياً بجوار النهر ، وتوقفا عند الاماكن المعتمة ، انشدها شعراً كانت تبدي الإعجاب وتطلب اعادة بيت أو شطر بينما السخرية تضج في أعماقها )) [٤٤]. ومما له دلالته ان الراوي كثيراً ما يتوقف عن الرواية يؤكد حقيقة

او يثبت حكمة ، أو يذكر عبره ، كأنما هو يشارك شخصياته ما تعانيه (( هنا في هذه المسافة المعتمة امراة عجوز تجاوزت السبعين تردد .. انه لاينسانا ، لاينسى عباده ،(( ...)) تشكو دائماً جفاف الريق وشدة الصـــداع ، لكنها لم تذهب الى طبيب حتى لاتكلف ابنها مصاريف الكشف والدواء ، تعيش معه منذ زواجه ((...)) اعلم ان الأمور لاتمضي ابدا كما يتمنى الخلق ،حتى وان بدت بسيطة عادية ، سبحان من له التصرف وتوجيه الشؤون ، في اواسط العمر ، وقرب خريفه ، وعند نهاية شتائه يخيل لبني الأنسان انه سيقضي السنوات الأخيرة في هدوء فماذا يقلق بعد اقتراب الموت ((... )) الطف بنا يامولانا فيما جرت به المقادير في هذه الخطط )) [٤٥] .

إن هذا الأمر يزيد من موثوقية الراوي لدى المروي له بوصفه قريباً من شخصياته مطلعـــاً على حقيقة ما يجري لها من أحداث [٤٦]. ويجب أن لا يذهب الذهن بعيداً في النظر الى تعليقات الراوي تلك على انها متابعة لما كان سائداً في الرواية العربيه في بدايتها ، حيث تثقل الرواية بتعليقات الراوي وشروحه ، فنجده يتخذ دور المعلم الموجه فينتهز كل فرصة لابداء آرائه وتوجيهاته للمتلقي . ان تعليقات الراوي في خطط الغيطاني انما تنبثق من طبيعة السرد العربي الذي يستند في اساسه على السعي وراء الحكمة التي هي ضالة المؤمن واستحصال العبرة، بل ان من الباحثين من يذهب الى ابعد من ذلك فيؤكد (( ان علوم اللسان والتاريخ، لاقيمة لها، ان لم توظف في ذلك ، سواء في استعماله وسائل في الوصف ، ام ادوات للتحليل والتفسير ، ويعود هذا الى ان العلوم والآداب جميعها ، لاقيمة لها ،ان لم تندرج في خدمة العلم الالهي )) [٤٧]، فضلاً عن طبيعة الشكل التراثي الذي يسعى الغيطاني الى توظيفه ، يقول المقريزي ، في مقدمة خططه ، في هذا الشأن :ـ

(( وبعد فان علم التاريخ من أجل العلوم قدرا واشرفها عند العقلاء مكانا وخطراً لما يحويه من المواعظ والأنذار بالرحيل الى الاخرة عن هذه الدار)) [٤٨].

# الخاتمة

مما لاشك فيه ان محاولة واحدة او عدة محاولات في سبيل تاصيل الرواية العربية لايعني انها قد اصبحت اصيلة شكلا ومضموناً ، الا ان ذلك من غير شك يشكل خطوة في طريق تأصيلها،ولاسيما اذا كانت منبثقة من حاجة فعلية الى العودة الى الموروث ويتآزر فيها الشـــكل المضمون ، كما هو الحال في (( خطط الغيطاني )) ، التي اثمر لقائها مع الموروث العديد من النتائج التي كشف عنها البحث ، ويمكن الإشارة الى اهمها في النقاط الاتية :ـ

١)على الرغم من متابعة الغيطاني الدقيقة لطبيعة الكتابة التاريخية ، فانه لم يذهب الى حد المحاكاة العمياء لها ، وانما افاد منها بما يتناسب مع طبيعة موضوع روايته .

٢) لم يكتف الغيطاني بتوظيف اساليب الكتابة التاريخية وانما اغنى موضوع ((خططه)) بحكايات متنوعة من الموروث .

٣) كشفت خطط الغيطاني عن امكانية وجود بدائل للتقنيات والاساليب التي عرفتها الرواية الغربية وحاكاها الروائيون العرب بالافادة من الموروث السردي العربي .

٤) لم تخل خطط الغيطاني من بعض الخروقات التي لم نجد مايسوغها فنياً ولا موضوعياً ، لم يستطع الروائي تجاوزها، مثل التحكم بحدود معرفة الراوي .

٥) ان العودة الى الموروث لاتقتضي اطلاعاً واسعاً على الموروث من لدن الروائي فحسب وانما تستلزم مثل ذلك من القاريء ايضاً، بما يؤهله للقراءة الدقيقة والفهم الصحيح لما يقرأ .

# المصادر والمراجع


- الأدب المقارن ، د. محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، (د.ت)
- أدبنا الحديث بين الرؤيا والتعبير ، ريتا عوض ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ، ط/١- ١٩٧٩.
- التراث والابداع الروائي ، جمال الغيطاني ، مجلة الباحث العربي ، ع / ٢-١٩٨٥ .
- جمال الغيطاني والتراث ، دراسة في اعماله الروائية ، مأمون عبد القادر الصمادي ، مكتـــــــبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٢.
- خطط الغيطاني ، جمال الغيطاني ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٨١.
- السردية العربية ، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي ، د. عبد الله ابراهيم ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ط/١ ١٩٩٢.
- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية ، تقي الدين ابي العباس أحمد بن علي المقريزي ، مكتبة المثنى ،بغداد ، (د.ت ).
- نجيب محفوظ يتذكر ، اعداد جمال الغيطاني ، دار المسيرة، بيروت ، ط/١ _١٩٨٠.
- نحو رواية جديدة ، الآن روب جرييه ، ترجمة مصطفى ابراهيم مصطفى ، تقديم :- لويس عوض ،دار المعارف ، مصر، (د.ت).

## الهوامش

(١) ينظر : التراث والابداع الروائي، جمال الغيطاني،مجلة الباحث العربي،ع/٢-١٩٨٥،ص١٠٠.
(٢) نحو رواية جديدة ، الآن روب جرييه، ترجمة مصطفى ابراهيم مصطفى، تقديم لويس عوض ، دار المعارف ، مصر (د.ت)ص١٤٠.
(٣) نفسه، ص١٤١.
(٤) نقلا عن ادبنا الحديث بين الرويا والتعبير ، ريتا عوض ، الموسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت /ط/١-١٩٧٩، ص ٢٢٧.
(٥) نجيب محفوظ يتذكر ، اعداد جمال الغيطاني ، دار المسيرة ، بيروت ، ط/١، ص ٧١.
(٦) ادبنا الحديث ، ص ٢٢٣.
(٧) جمال الغيطاني والتراث ، دراسة في اعماله الروائية ، مامون عبد القادر الصمادي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٢، ص
(٨) التراث والابداع االروائي ، ص ١٠٠.
(٩) نفسه ، ص ١٠٢.
(١٠) نفسه.
(١١) نفسه.
(١٢) الادب المقارن ، د. محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، (د.ت)، ص ٢٤٦.
(١٣) خطط الغيطاني ، جمال الغيطاني ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٨١، ص ١٨.
(١٤) نفسه ، ص ١٩.
(١٥) نفسه ، ص ٢٢.
(١٦) نفسه ، ص ٢٤.
(١٧) نفسه ، ص ٢٥.
(١٨) نفسه، ص ٢٧.
(١٩) نفسه ، ص ٤٠.
(٢٠) نفسه ، ص ٤٢.
(٢١) نفسه ، ص ٣٧١.
(٢٢) ينظر على سبيل المثال ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية ، تقي الدين ابي العباس احمد بن علي المقريزي ،مكتبة المثنى ، بغداد ، (د.ت)ج/١،ص٦٦.
(٢٣) خطط الغيطاني ، ص ٣٥.
(٢٤) نفسه ،ص ٨٠.
(٢٥) نفسه،ص ١٥٩.
(٢٦) نفسه ، ص ١٦٤.
(٢٧) نفسه ، ص ٢٠٧-٢٠٨.
(٢٨) نفسه ، ص ٣٧.
(٢٩) نفسه ، ص ١٥٣.
(٣٠) جمال الغيطاني والتراث ، ص ٧٧.
(٣١) خطط الغيطاني ، ص ٧.
(٣٢) نفسه ، ص ٨.
(٣٣) كتاب المواعظ والاعتبار ، ص ٤.
(٣٤) خطط الغيطاني ، ص ٩.
(٣٥) نفسه ، ص ١١١.
(٣٦) نفسه ، ص ١٢.
(٣٧) نفسه ، ص ١٣.

(٣٨) نفسه ، ص ١٧.
(٣٩) نفسه ، ص٣٠٦.
(٤٠) نفسه ، ص ٢٧١.
(٤١) نفسه ، ص ٣٢٦ و ص٣٣٠.
(٤٢) الأدب المقارن ، ص ٢٤٦ .
(٤٣) يقول تشاتمن ( Chatman ) في هذا الصدد : ان على الراوي غير المشخص ان يراقب ما يقوله مخافة من ان يكشف نفسه ، ويجعل حظوره ظاهراً ، ينظر :
Story and Discourse , Semour Chatman , Cornell University Press , Ithala and London , 1978 , p. 196-212 .
(٤٤) خطط الغيطاني ، ص ١٧١ ، وينظر ، ص ١٧٢ .
(٤٥) خطط الغيطاني ، ص ١٧٣.
(٤٦) لمزيد من الأطلاع على الأساليب التي تعمق الصلة بين الراوي والمروي له ، ينظر :
The reader's construction of Narrative , Horst Ruthrof , Routledge and Kegan Paul , London , Boston , and Henley , 1981 , p. 129 .

(٤٧) السردية العربية ، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي ، د. عبد الله ابراهيم ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط/١-١٩٩٢،ص٢١٦.
(٤٨) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ص٢ .